أهداف حوار الحضارات في الفكر الإسلامي

الطالب الباحث: يوسف بنجديدة

المغرب

تلخيص:

يتناول هذا البحث موضوع أهداف حوار الحضارات في ضوء الرؤية الإسلامية، باعتباره من القضايا الفكرية والحضارية التي تكتسب أهمية متزايدة في سياق التفاعل العالمي المعاصر، وما يشهده من تحديات معرفية وثقافية وأخلاقية فرضتها تيارات العولمة الفكرية والمادية. يسعى هذا البحث إلى بيان أن الحوار بين الحضارات، وفق التصور الإسلامي، لا يُعد ترفاً ثقافياً أو خطاباً مرحلياً، وإنما هو ضرورة حضارية شرعية وإنسانية ترتكز على عالمية الدعوة الإسلامية بوصفها خطاباً عالمياً شاملاً يخاطب الإنسانية كافة.

وقد ركزت الدراسة على محورين أساسيين: الأهداف الشرعية، التي تعنى بالدعوة إلى الله وفق منهج التوحيد، وتصحيح المفاهيم المغلوطة حول الإسلام، وترسيخ قيم العدل والرحمة والإنصاف؛ والأهداف الإنسانية، التي تتجسد في تحقيق التكامل البشري، وصيانة الكرامة الإنسانية، وبناء مجتمع عالمي متعايش يعترف بالتنوع الثقافي والديني ضمن إطار التعاون والتعارف المشترك.

كما عالج البحث إشكالية الفكر الأحادي الذي تروج له العولمة الغربية الحديثة، والذي يقوم على طمس الخصوصيات الثقافية وإقصاء المرجعيات الروحية والأخلاقية لصالح منظومة مادية تفتقر إلى المعنى والقيم، مما يجعل الحاجة ملحة إلى استعادة المشروع الحضاري الإسلامي القادر على تقديم بديل إنساني متوازن قائم على مرجعية الوحي الإلهي.

وقد خلص البحث إلى أن التصور الإسلامي لحوار الحضارات يتميز بشموليته، وعمقه المعرفي، وتوازنه بين مقتضيات العقيدة ومطالب الحياة المعاصرة، وأنه يحمل في جوهره إمكانيات فعلية لتجاوز أزمات الفكر الأحادي السائد، من خلال بلورة مشروع تكاملي إنساني جامع يستند إلى قيم التعارف والتكامل والسلم العالمي في إطار التوحيد الخالص لله سبحانه وتعالى.

ABSTRAT

This study addresses the objectives of inter-civilizational dialogue from an Islamic perspective, considering ita critical intellectual and civilizational issue of increasing importance in the context of contemporary global interaction. It examines the epistemological, cultural, and ethical challenges posed by currents of intellectual and material globalization. The research asserts that dialogue among civilizations, from the Islamic worldview, is not a cultural luxury or a temporary discourse, but rather a civilizational, legal, and humanitarian necessity rooted in the universality of the Islamic message, which is inherently comprehensive and directed to all of humanity.

The study focuses on two main dimensions:

Religious objectives, including the call to God (da'wah) based on the doctrine of monotheism (tawḥīd), correcting misconceptions about Islam, and promoting values of justice, mercy, and fairness.

Humanitarian objectives, which aim to achieve human integration, preserve human dignity, and build a globally cooperative and peaceful society that acknowledges cultural and religious diversity within a framework of mutual understanding and collaboration.

The research also addresses the problem of the monolithic intellectual paradigm promoted by modern Western globalization, which tends to erase cultural particularities and exclude spiritual and moral references in favor of a materialistic framework devoid of meaning and values. This underscores the urgent need to revive the Islamic civilizational project, which offers a balanced and human-centered alternative grounded in divine revelation.

The study concludes that the Islamic perspective on civilizational dialogue is characterized by its comprehensiveness, epistemological depth, and balanced integration between the imperatives of faith and the demands of contemporary life. At its core, it offers a viable path to transcend the crises of prevailing unilateral thought through the development of an inclusive, humanistic model based on the values of mutual recognition, integration, and global peace, anchored in pure monotheism.

المقدمة

لن يكون حوار الحضارات ذا قيمة إذا لم يحقق الأهداف المرجوة من قيامه والتي يرجى منها تحقيق نتائج مرضية في شتى المجالات ولجميع الأطراف، إذ الحوار ليس غاية في حد ذاته، بل هو أداة حضارية راقية للتقارب بين الحضارات. كما أن الهدف من الحوار، **ليس الغرض منه هو تدبير الاختلاف** من أجل فك الاشتباك بين الآراء المختلفة أو تحييد كل طرف إزاء الطرف الآخر، **وليس الغرض منه الدفاع عن أنفسنا** ، وإنما **هدفه الأسمى** ؛ المساهمة في البناء الحضاري العالمي من خلال تنوير الرأي العام وتعريفه بالإسلام و بعظمة هذا الدين الحنيف ابتداء، و بث روح القيم الإنسانية المشتركة التي جاء بها الإسلام ودعا إلى تداولها بين الناس أجمعين ، وترسيخ قيم السلم و التسامح ، لاو إثراء الفكر الإنساني ومواجهة نظريات الصراع والصدام وتمهيد الطريق للتعاون المثمر فيما يعود على جميع الأطراف بالخير، وذلك بالبحث عن القواسم الإنسانية المشتركة التي تشكل الأساس المتين للتعاون البنّاء بين الأمم والشعوب ، وأشير هنا الى أنه يعز تحصيل وذكر جميع الأهداف المرجوة من حوار الحضارات حيث تشمل معظم الميادين ؛ البيئية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والرياضية وغيرها من الهداف التي تخدم مصالح العباد ، لذى سأقتصر بحسب تقديري على أهم هذه الأهداف بما يتناغم مع الطرح العام لهذه الدراسة . ويمكن إجمال الأهداف التي يتوجب تحقيقها من خلال الحوار، و التي وردت في هذا السياق كما يلي: أهداف شرعية ، وتتضمن الدعوة إلى دين الإسلام العالمية و أهداف إنسانية ، وتشمل التكامل البشري و نشر العلوم والمعرفة.

" فقضية الحوار الحضاري، ليست مسألة الدفاع عن الإسلام أو عن أنفسنا، ضروري أن نعرف ما هي أجندة الحوار الحضاري العالمي، ماهي موضوعات الحوار ؟ وما أهم ما نستطيع أن نسهم به نحن في المنطقة العربية الإسلامية لحل مشكلات الإنسانية؟ هذا هو التحدي الحقيقي، كيف نكون منتجين للمعرفة وليس مجرد مستهلكين؟"[1]

1. **الأهداف الشرعية**

ـ الدعوة إلى دين الإسلام العالمية

الدّين في اللغة : "الجزاء والمكافئة، وديّنته بفعله دينا جزيته، **والديّان الله عزوجل** ،والديّان القهّار، وقيل الدَّيْنُ المصدر و الدِّينُ الاسم. وقوله تعالى: ﴿ إنا لمدينون ﴾أي مجزيّون محاسبون ،و الدين معناه مالك يوم الجزاء، وقوله تعالى :﴿ذلك الدين القيم﴾ اي ذلك الحساب الصحيح العدد المستوي ،والدين الطاعة والجمع الأديان ، و الدين الإسلام"[2] .

وقيل فيه اصطلاحا: "الدين وضع إلهي يدعو أصحاب العقول الى قبول ما هو عند الرسول صلى الله عليه وسلم. و الدين والملة متحدان بالذات ومختلفان بالاعتبار فإن الشريعة من حيث إنها تطاع تسمى دينا ، ومن حيث إنها تجمع تسمى ملة ، ومن حيث إنها يرجع إليها تسمى مذهبا، وقيل الفرق بين الدِّين والملة والمذهب أن الدين منسوب الى الله تعالى ،والملة منسوب إلى الرسول، و المذهب منسوب الى المجتهد."[3]

أما الإسلام في اللغة فمعناه: " الاستسلام والانقياد، والاسلام من الشريعة اظهار الخضوع والتسليم واظهار الشريعة والتزام ما أتى به النبي صلى الله عليه وسلم"[4].

"و كل ما يكون الإقرار باللسان من غير مواطأة القلب فهو إسلام ، وما واطأ في القلب اللسان فهو إيمان."[5]

وفي الشرع يأتي على ضربين: الأول: يطلق على الإفراد غير مقترن بذكر الإيمان فحيثما أطلقت كلمة الإسلام، ولم يقترن بها لفظ الإيمان فحينئذ يراد بها الدين كله .

أما إذا أطلق الإسلام مقترناً بالإيمان فينصرف فقط إلى الأعمال والأقوال الظاهرة.

فالإسلام هو الاستسلام الله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والخلوص من الشرك. وقد دلت النصوص الشرعية على أن الإسلام له معنيان:

–المعنى العام: وهو الدين الذي بعث الله به جميع الأنبياء، كما قال عزوجل عن نبيه نوح : ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[6]، وقال عن إبراهيم : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾. [7]

– المعنى الخاص : وهو ما بعث الله به نبيه محمداً من الشريعة التي خصه بها، وخص أمته بها من القرآن والسنة، حيث أصبح الدين حقيقة عرفية يطلق على مجموع عقائد وأعمال جاء بها رسول الله ﷺ ، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾[8]،فهذا التعبير يدل على صيغة الحصر، أي لا دين إلا الإسلام، ثم إنه قال : ﴿ عند الله ﴾، فهو لايعتبر عند الله ديناً إلا إذا كان ذلك المتّبع هو دين الإسلام."[9]

" والإسلام علم بالغلبة على مجموع الدين الذي جاء به محمد ﷺ ، كما أطلق على ذلك الإيمان أيضا ، ولذلك لقب أتباع هذا الدين بالمسلمين و بالمؤمنين ، وهو الإطلاق المراد هنا ، وهو تسمية بمصدر أسلم إذا أذعن ولم يعاند إذعانا عن اعتراف بحق لا عن عجز ، وهذا اللقب أولى بالإطلاق على هذا الدين من لقب الإيمان ؛ لأن الإسلام هو المظهر البين لمتابعة الرسول فيما جاء به من الحق ، واطراح كل حائل يحول دون ذلك ، بخلاف الإيمان فإنّه اعتقاد قلبي ، ولذلك قال الله تعالى ﴿ هو سماكم المسلمين﴾ وقال: ﴿ فقل أسلمتُ وجهي الله ومن اتبعني﴾، ولأن الإسلام لا يكون إلا عن اعتقاد لأن الفعل أثر الإدراك ، بخلاف العكس فقد يكون الاعتقاد مع المكابرة. وربما أطلق الإسلام على خصوص الأعمال ؛ والإيمان على الاعتقاد ، وهو إطلاق مناسب لحالتي التفكيك بين الأمرين في الواقع ، كما في قوله تعالى ، خطابا لقوم أسلموا مترددين –﴿ قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾ أو التفكيك في تصوير الماهية عند التعليم الحقائق المعاني الشرعية أو اللغوية كما وقع في حديث جبريل : من ذكر معنى الإيمان ، والإسلام ، والإحسان، و التعريف في الدين تعريف الجنس ؛ إذ لا يستقيم معنى العهد الخارجي هنا وتعريف الإسلام تعريف العلم بالغلبة : لأن الإسلام صار علماً بالغلبة على الدين المحمدي".[10]

والإسلام هو الدين الخاتم، وهو الدين العالمي لجميع الخلق، كما قال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرا ﴾[11] والعالمين هنا هم الانس و الجن، فدعوة الاسلام لا تقتصر على جنس دون آخر، بل هي رحمة من واجد هذا الكون، فوجب على كل مسلم وجوبَ عين الدعوة إليه سعيا في رفع الأغلال الفكرية والعقدية التي تجثم على قلوب و عقول كل من حُجب الرحمة التي جاء بها سيد الخلق صلى الله عليه وسلم .

فمن أهم صُوى دين الإسلام العامة والخاصة ؛ عالمية الدعوة إليه ، و الحوار إذن هو في الحقيقة التطبيق العملي لمبدأ الدعوة إلى الإسلام مع القريب والبعيد والعدو والصديق ومع كافة أصناف بشر ومختلف العقائد والتيارات الفكرية و سائر الملل و النحل ، و الآيات التي تحدثت عن هذا المبدأ كثيرة منها قوله تعالى : ﴿ ولتكن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى لخير ويَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عن المنكر وأولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[12]وقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ احسن قولا ممن دعا إلى الله وعَمِلَ صَالِحًا وقال إنني مِنَ المسلِمِينَ﴾[13]

والمهمة الأولى في قضية الدعوة إلى الله تعالى هي انفتاحها وضرورة توجيهها للعالم أجمع، دون حصرها بمكان أو زمان أو بفئة معينة من خلال :" عرض الإسلام بجوهره الحقيقي وثوبه القشيب ووضوح رسالته وإبراز جماله وشموله لكل جوانب الحياة الإنسانية الخاصة والعامة وصلاحية تشريعه لكل زمان ومكان وأن رسالة الإسلام ما جاءت إلا لتسعد الإنسانية جمعاء، وتوضح لهم سبل النجاة والأمن والاطمئنان والعيش بسلام ومحبة وإخاء".[14]

وهذا الانفتاح هو مطلب ربابي عززته عشرات النصوص القرآنية ، منها قوله تعالى﴿ قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾[15] ، و الأحاديث النبوية ومنها قوله صلى الله عليه وسلم:((إن الله بعثني رحمه للعالمين كافه فأدوا عني رحمكم الله ...))[16].

إن مثل هذه الشواهد ؛ أكدت عالمية الدعوة الإسلامية ، لأنها جاءت خاتمة للرسالات ، وفي فحواها ما يكفل لها الملاءمة لجميع الأجيال التي ستأتي تباعا، لأنها جاءت بعقيدة التوحيد التي تتناغم مع الفطرة السليمة، ودور المسلم هو في إيصال أبجديات هذه الدعوة بأفضل الوسائل والسبل المتاحة حتى تنتهي مهمة الوجود الإنساني. وهذا يعني أن التعبير بـ" عالمية الدعوة الإسلامية يُقصد به أنها دعوة موجهة لجنس الناس ولكل زمان ومكان ، بمعنى أوضح أن تكون شريعة الإنسان من حيث هو إنسان بقطع النظر عن العوامل والفوارق العارضة".[17]

ولست هنا من أجل الاستغراق في سوق الأدلة الشرعية لإثبات عالمية الدعوة الإسلامية ، ولكن لابد من الإجابة على سؤال قد يُطرح ، هو : هل المجتمع البشري بحاجة فعلا إلى دعوة عالمية توحّده؟

والجواب في تصوري واضح قطعيٌ : نعم ، إن البشرية بحاجة ملحة إلى دعوة عالمية لسببين:

السبب الأول ؛ لأنها ضرورة يقتضيها العقل والمنطق السليم ؛ كون مصالح و حاجات الإنسان أصبحت مشتركة أكثر من أي وقت ، والعلاقات المتبادلة تعددت ، ووسائل التواصل لبعد المسافات طوت، و جغرافياته تقاربت، ومجالات حياته تنوعت ، فكان لابد من دعوة عالمية ورسالة موحدة.

وعلى هذا الأساس؛ فإن الدعوة إلى دين الإسلام هي المطلب المروم ؛ لأننا نجد الإسلام هو

" النظام الوحيد الخالي من خصائص التفكير البشري ، ومن هنا يبدو للناظر المنصف وقد خلا من الخطأ وضيق النظرة إلى الناس والأشياء ، ثم أيقنا أنه بعيد كل البعد عن النزعات الشخصية والرغبات الفردية ، بل تتجلى فيه الحكمة العاقلة والتدبر النزيه لكل مافي الكون من موجودات وأناس ينظر إليهم الإسلام دون تفرقة تقوم على لون أو جنس أو لغة .. وإذن فالدين الإسلامي بهذه الخصائص الجامعة العالمية السرمدية ضرورة يقتضيها العقل ولا يستطيع أن يستغني عنها الإنسان في زمن من أزمانه أو في مكان من أمكنة وجوده فهو ضرورة العقل – لاريب – لا يستطيع العقل منه فكاكاً ، طالما هناك رغبة في حياة رشيدة تقوم على دعائم الحق والخير لهذه البشرية ."[18]

والسبب الثاني : أن الدعوة العالمية ضرورة يحتاج إليها الإنسان لتدبير أموره الروحية والمادية وقضاء حاجاته وضروراته المتشعبة والمتجددة في آن واحد ، بوسطية وواقعية واعتدال ، و لا ينبري لهذا التدبير إلا دعوة الإسلام الشمولية التي عالجت شتّى مناحي الحياة.

"إن هناك مشكلات أساس لابد من حلّها حتى تتوافر الطمأنينة والأمن والتآلف والبر والسلام والرحمة ... والإنسانية – إن هي أرادت لنفسها نجاة – عليها أن تعرض نفسها ومشكلاتها على دين ربها ، ولن تجد إلا الإسلام ، والإسلام فحسب ، يجمعها في صعيد واحد على رحابة الود وطهارة العهد وصدق الأمانة وكريم الوفاء ".[19]

وللبرهان على عالمية الدعوة الإسلامية ؛ " نود أن نتعرف على الخصائص التي يجب أن يشتمل عليها الدين ليكون عالميا وصالحا لكل زمان ومكان ، وأن ندرك مكانة الدعوة الإسلامية من هذه الخصائص . فنجمل أمر هذه الخصائص في ثلاث:

أولا ـ وفاؤه بحاجة الإنسانية جميعا فيما يصون وحدتها ، ويرعى إنسانيتها ، ويحمي أفرادها في العاجل والآجل .

ثانياـ تشريعاته التي تضمن قيام الإنسانية كلها في محيط واحد، لا تنزع معه إلى عصبية دم، أو اختلاف لونها أو فرقة جنس .

ثالثاـ اتساقه مع حقائق الكون وخصائص الوجود ، بحيث لا يتعارض مع ما يثبت من حقائق العلم ، أو يختلف مع منطق الفكر.

فهل تضمَّنت الدعوة الإسلامية كل ذلك أو قصرت عنه ؟ "[20]

إن الجواب على هذا السؤال تنبري له مجموعة من الحقائق النقلية والعقلية ، لأن عالمية الدعوة الاسلامية ليست مجرَّدة ، وإنّما هي عالمية حقيقية جاءت لترفع عن الانسان الأغلال الفكرية و العقدية الفاسدة التي أثقلت كاهله وحطّت من كرامته، فمن خصائصها التي تُمكّنها من العالمية ؛ صون كرامة الانسان لقوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ [21]وذلك من خلال نظام متكامل من العبادات والمعاملات ، ففي مجال العبادات شرع الإسلام الزكاة ،هذا التشريع الذي يحارب الفقر والعوز ومدّ اليد و يحقق كرامة الإنسان من خلال أخذ حقه المشروع من أموال الغير ، وفي المعاملات ؛ نظم الإسلام البيوع ، وأباح التجارة وحرّم الرّبا لأنه يُفضي إلى تراكم الفوائد على المدين فتهان كرامته ، إن الكرامة الإلهية هي لكل بني آدم بصريح الآية ، لأن التكريم هو للإنسان ما دام محققا للربوبة والوحدانية لله ، أي ما دام آخذا بأسباب الكرامة.

وكذلك تحقيق الوحدة الإنسانية ؛ من خلال الانفتاح و التعارف، بعيدا عن العصبية السامية والتصنيفات و الانتماءات ، وكل رابطة سوى رابطة العقيدة وما يتفرع عنها، قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[22]. ومن خصائص الاسلام أنه لا يتعارض مع الحقائق العلمية فالإسلام يدعوا إلى العلم والمعرفة ، و قد رفع سقف البحث العلمي إلى الأفق من خلال الحث على النظر والتأمل في الآفاق و في الانفس ، وجعلها من أعظم مداخل التعبد.

" فعالمية الدعوة الإسلامية تعني أنها صالحة بسماحتها وطهرها والتقائها مع الفطرة أن تأخذ طريقها الطبيعي إلى كل النفوس ، ومن حق الناس جميعًا أن ينعموا بالحياة وفطرتها السمحة . وأنها في حقائقها تتسق مع خصائص الكون وخصائص الوجود ، ولا تختلف باختلاف العصور ، مما يجعلها صالحة لكل زمان ومكان ، ولا تتعارض مع ما يثبت من حقائق العلم أو يختلف مع منطق الفكر.

وأنها بحقائق منهاجها ونظرتها إلى الكون ، وطلبها الإيمان عن طريق التأمل والفكر ، تأخذ بالألباب ، وتأسر العقول على اختلاف مستوياتها . وفي شريعتها السمحة ، ورفعها الحرج ، وتوخيها اليسر ، وتقديرها لمصالح الناس ، ورعاية حقوقهم ، ما يجمع أمر الناس عليها ويزيد تعلقهم بها.

إنها دعوة تقيم المساواة بين العباد جميعًا ، فتجعلهم أمام الله سواء ، يتفاضلون بالتقوى والعمل الصالح ، فتنتفي مع هذه العقيدة عصبية الدم واللون والجنس ، وتحيا عصبية الإخاء والإيمان والحب ."[23]

إن الخطوط العريضة التي تتأسس عليها عالمية الإسلام وشموليته ، مبناها وأساسها الوحي ،فلم تكن رؤية الإسلام لعالميته ذات اجتهاد بشري محض ، "كخطوط دولة مدينة City State ، التي أشاد وتمسك بها الإغريق القدامى ، ولم تكن هذه الخطوط خطوط الدولة القومية National State المحددة تاريخا وإقليما وثقافة ولغة ... الخ ، كما لم تكن خطوط هذه الدولة هي خطوط الامبراطورية التي تتسع فوق الأقاليم ولا تعترف بالحدود لأن الأمبراطورية كان يتزعمها امبراطور دنيوي يحكم بالبطش والسلاح ، إنما كانت الخطوط متجهة مباشرة إلى رسم دولة عالمية يسودها الإخاء والود والمحبة ، وتلتزم بالقوانين الإلهية ، وتدعم مبادىء الأخلاق وتقيم المساواة الحقيقية بين الناس "[24].

وغاية القول ؛ إن العالمية في الإسلام تعني : " تجاوز الإنسان لذاته في تحولاته إلى العالم ليكون محوراً للخير ، وقطباً للتعارف ، ومثالاً للتقوى، فإن هذه العالمية إنما تكون كذلك فيما لو انطوت على روحية الإسلام وعبرت عنه وانفتحت على ثقافات العالم بروحية التحقق فيه على نحو الفعل والمشاركة والتأسيس لرؤية إنسانية شاملة تحفظ التنوع، وتصون الكرامة، وتلحظ واقع الشعوب وما لها من خصوصيات ثقافية وحضارية، وكذلك المشترك الإنساني العام الذي هو بمثابة الجسر التواصل الشعوب وتعارفها فيما بينها."[25]

وبمعنى آخر " أن معنى العالمية ؛ أن يتحول الانسان في ذات نفسه ، وفي صيرورته وحياته ليكون تعبيرا عن الرسالة، بعد أن مهّدت له العناية الإلهية بالعلم والهدى، وأرشدته إلى سبل الكدح الحقيقي والجدل الحقيقي المؤديان في النهاية إلى أن تكون الرسالة تعبيرا عن الإنسان، وهل معنى الجدل غير ذلك؟ أن يتحول الإنسان الى رسالة ، وتتحول الرسالة إلى إنسان ، بحيث يكون الإنسان هو الحق ، والحق هو الانسان ، ثم إن صيرورة الرسالة الى أن تكون إنسانا ، أو صيرورة الإنسان إلى أن يكون رسالة ،هي من الحقائق الثابتة في الفكر الديني وخاصة في الفكر

الاسلامي ، وهذه الصيرورة للإنسان والرسالة ليكون كل منهما هو الآخر، ليس أمراً متحققا كيفما اتفق، وإنما هو نتيجة طبيعية لحياة الرسالة في قلب الإنسان وللعلاقة الجدلية معها."[26]

و عالمية الإسلام التي يرنو إليها الفكر الإسلامي من منطلاقات الوحي ، تتناقض أفقيا وعموديا مع العولمة التي يكرسّها الفكر الغربي المادي ، فإذا كانت عالمية الإسلام تسترشد بالوحي ، فإن العولمة، على خلاف ذلك تماماً، " إذ هي تعادي الوحي، وتختزل الثقافات والدول، وتؤسس لفرعونية جديدة في مختلف مجالات الحياة، وتفرق بين البشر على أساس الغنى والفقر، وتحدث خللاً في توازن الإنسان، وتبعث فيه اليأس والقنوط ، وبمعنى آخر يمكن القول : إن العولمة، كما يراد لها أن تحقق، هي محاولة جديدة لجعل الإنسان شيئاً مادياً متجاوزاً لذاته في إطار من المعادلات الاقتصادية والسياسية والثقافية التي ابتدعت في إطار تنظير الإنسان لذاته بعيداً عن الوحي الإلهي" [27].

وفي نفس السياق ، يقول محمد عمارة : "أن مفهوم العولمة الغربية مغاير، بل ومناقض لمفهوم العالمية الإسلامية، فالعالمية الإسلامية هي تنوع وتمايز واختلاف في إطار الوحدة، على مستوى «الأسرة» و«الأمة» و«الإنسانية»، تتحقق فيها وبها سنة الله التي أراد ألا يكون لها تبديل ولا تحويل ، سنة التنوع في الشعوب والقبائل والأمم والحضارات والمناهج والثقافات واللغات والقوميات والألوان والأجناس والشرائع والملل والديانات والمذاهب والفلسفات، وذلك في إطار جوامع الإنسانية والفطرة التي فطر الله الناس عليها. أما «العولمة»، فإنها، بدءًا من الصيغة الصرفية لمصطلحها، وانتهاء بأطروحاتها ومؤسساتها وممارساتها هى قسر غربى، يريد صب العالم في قالب غربي واحد – يغلب عليه الآن الطابع الأمريكي – فهى، مثل «الفرنسة» .. و«الجلنزة» و«الأمركة» تريد صب النماذج الحضارية والقيمية والثقافية والاجتماعية المتنوعة في قالب واحد، هو الآن القالب الغربى الغلاب، منتهزة فرصة تعاظم قوة القبضة الغربية"[28].

وما أجود ما تفضل به المفكر المغربي عابد الجابري حينما وضع فروقا جوهرية بين العالمية والعولمة حيث قال:"العولمة شيء و''العالمية'' شيء آخر، العالمية تفتح على العالم، على الثقافات الأخرى، واحتفاظ بالاختلاف الثقافي وبالخلاف الإيديولوجي، أما العولمة فهي نفي للآخر وإحلال للاختراق الثقافي محل الصراع الإيديولوجي.

العولمة إرادة للهيمنة وبالتالي قمع وإقصاء للخصوصي. أما العالمية فهي طموح إلى الارتفاع بالخصوصية إلى مستوى عالمي، العولمة احتواء للعالم، والعالمية تفتح على ما هو عالمي وكوني.

نشدان **العالمية** في المجال الثقافي، كما في غيره من المجالات، طموح مشروع، ورغبة في الأخذ والعطاء، في التعارف والحوار والتلاقح. إنها طريق الأنا للتعامل مع ''الآخر'' بوصفه ''أنا ثانية''، طريقها إلى جعل الإيثار يحل محل الأثرة.

أما **العولمة** فهي طموح بل إرادة لاختراق ''الآخر'' وسلبه خصوصيته، وبالتالي نفيه من ''العالم''. العالمية إغناء للهوية الثقافية، أما العولمة فهي اختراق لها وتمييع .و الاختراق الثقافي الذي تمارسه العولمة يريد إلغاء الصراع الإيديولوجي والحلول محله. الصراع الإيديولوجي صراع حول تأويل الحاضر وتفسير الماضي والتشريع للمستقبل، أما الاختراق الثقافي فيستهدف الأداة التي يتم بها ذلك التأويل والتفسير والتشريع: يستهدف العقل والنفس ووسيلتهما في التعامل مع العالم: ''الإدراك..و بالسيطرة على الإدراك، وانطلاقا منه، يتم ''إخضاع النفوس''، أعني تعطيل فاعلية العقل، وتكييف المنطق، والتشويش على نظام القيم، وتوجيه الخيال، وتنميط الذوق، وقولبة السلوك. والهدف تكريس نوع معين من الاستهلاك لنوع معين من المعارف والسلع والبضائع: معارف إشهارية تشكل في مجموعها ما يمكن أن نطلق عليه ثقافة الاختراق" [3029].

أخلص من هذه الدراسة، إلى أن الاسلام في دعوته العالمية للبشرية جمعاء يسعى إلى الأخذ والعطاء ، و إقامه حوار حضاري فعال لإرساء دين الاسلام الكامل، وتخليص الإنسانية من سطوة العولمة و براثن الوثنية ، و العبودية لغير الله ، وتخليص البشرية من الرواسب الفكرية الشاذة، و العلائق العقدية المذمومة.

إن الحديث عن هذا المطلب الملّح ـ في رأيي ـ ، هو حديث عن مصير الأمة ، و استشراف لمستقبلها من جوانبه الدينية و القيمية والاجتماعية والسياسية ...،لأن الدين الإسلامي هو صمّام أمان الحضارة الإنسانية، والمحافظة عليه والدعوة إليه أمر ضروري، وهي وظيفة الأنبياء والمرسلين ومن سار على نهجهم، و هذا يحتاج الى فهم إسلامي أكثر عمقا ، فإذا لم يتغير منهج التفكير وتصحح منطلقاته فسوف يبقى الفكر الإسلامي عاجزا عن النظر الناقد والرؤية النافذة.

إن الدعوة الى عالمية الاسلام، لن يتأتى لها النجاح والصمود في ظل مواجهة تيار العولمة دون صياغة مفاهيمنا الاسلامية ، و الردّ عن الشبهات التي تحاول النيل من عالمية الدعوة ، وبلورة أخلاقياتنا في صرح فكري إسلامي متين يستطيع الصمود بوجه المضاربة النقدية التي تمارسها مؤسسات العولمة و أبواقها من مستشرقين ومستغربين وتطلقها صوب مفاهيمنا وقيمنا في ميادين الحياة كافة.

2. أهداف إنسانية

ـ التكامل البشري.

من حق الإنسان أفرادا أو أمما أن يَنْشدَ التكامل، المثل العليا، المطلق ،كأهداف راقية، راوضت الفكر الإنساني عبر الزمن ، وهو ما ميّز الانسان عن غيره من الحيوان ، فإنّا نرى الحيوانات تعيش على نمط واحد ليست في رقي ، فمعيشة الأسد قديما هي معيشته اليوم ، أما الإنسان فدائم الرقي يؤثّر في نفسه حيث يتكامل في معارج التقدم ، علما و عملا و سلوكا، و حوار الحضارات هو المعراج الذي يمكّن المجتمع البشري من الرقي و التقدم وفق دعوة الإسلام العالمية التي أساسها التوحيد، فلا يمكن الحديث عن التكامل البشري في غياب هاته الرؤية ، و هذا ما يصطلح عليه بمطلب المدنية، فقد أرادها الفارابي و قبله أفلاطون مدينة فاضلة ، و دولة عالمية واحدة يسودها العدل و السلم و الفضيلة.

قد يقول قائل : إن الحديث عن التكامل البشري لا ينصرف أن يكون حديثا طوباويا** مقارنة مع الواقع ، فهناك محذورات وقع فيها إنسان القرن الواحد والعشرين يندى لها الجبين، وهذا صحيح ، فإشكالية التكامل البشري تتجلى في العقلية الغربية الاستعلائية وذيولها، وفي الذهنية الإمبريالية التي انتدبت العنف بجميع صيغه ؛ الفكري ، والنفسي والاقتصادي ... كوسيلة سحقت بها العالم و قسمته إلى مستعمرات ، واختزلت الوجود البشري بين مستعمَر ومستعمِر ، هذ الأخير الذي تمركز حول ذاته وألغى غيره.

فما علاقة ماهية الإنسان الأخلاقية بالتكامل البشري ؟هل تكمن إشكالية التكامل البشري في العقلية الإقصائية أم في الأخلاق المتدنّية ؟

"من هنا تأتي الأهمية الحضارية لدراسة التكامل التي تنشد بناء ذهنيات ترى في تنوع البشرية أساساً للتكامل نحو تنوّعات أسمى، وفي اختلاف البشر منطلقا لتكاملهم وتعاضدهم، فهي لا تجزئ العالم ثم تضخم الجزء على حساب الكل، ثم تلغي كل ما لا يتوافق مع الجزء، وهنا تظهر أن دراسة التكامل هو أحد المخارج المهمة للحضارة الإنسانية من مأزق العنف والإقصاء"[31].

إن التكامل البشري مطلب لا غنا عنه ، ولا يمكن تحققه إلا من خلال توطيد علاقة الفرد بالمجتمع والمجتمع بخالقه ، فكما أن كل عضو في الجسم ينفع سائر الأعضاء وينتفع منها، ويضر سائر الأعضاء ويتضرر منها، كذلك الحال في جسم المجتمع البشري، كل ينفع وينتفع، و كما أبدع الشاعر بقوله:

المرء كالنار تبدو عند مسقطها صغيرةً ثم تخبوا حينَتحتدمِ

والناسُ بالناسِ من حَضْرٍ و باديةبعضٌ لبعضٍ وإن لم يشعروا خَدمُ

و كلُّ عضوٍ لأمرٍ ما يمارسُهُلا مشي للكفِّ بل تمشي بك القَدم

و عالمٌ ظَلَّ فيه القولُ مختلفاًو محدَثٌ هو من ربٍّ له القِدمُ [32]

" إن الناس كلهم على اختلاف أجناسهم ، وألوانهم ، ولغاتهم، ودينهم، جسم عضوي واحد، فكل أمة تؤثر في الأمم الأخرى، وتتأثر بها في صنائعها ، وعلومها وأخلاقها، فليست أمة من الأمم غنية بمعادنها وصنائعها وعلومها عمّا حولها، بل ترى أن الله قد قسّم الخيرات في العالم فأمة غنية بالحبوب ولكنها في حاجة الى المعادن، وأخرى على العكس منها، وهكذا هو شان المجتمعات والأفراد ، كل فرد فيها عضو من أعضائها ولا يخلو إنسان من ارتباطه بمجتمعات كثيرة، فكل إنسان عضو في أسرة، وفي مدينة أو قرية، وفي أمة وفي العالم بأسره."[33]

"وكل واحد من الناس مفطور على أنه محتاج، في قوامه، وفي أن يبلغ أفضل كمالاته، إلى أشياء كثيرة لا يمكنه أن يقوم بها كلها هو وحده، بل يحتاج إلى قوم يقوم له كل واحد منهم بشيء مما يحتاج إليه ، وكل واحد من كل واحد بهذه الحال، فلذلك لا يمكن أن يكون الإنسان ينال الكمال، الذي لأجله جعلت الفطرة الطبيعية، إلا باجتماعات جماعة كثيرة متعاونين، يقوم كل واحد لكل واحد ببعض ما يحتاج إليه في قوامه؛ فيجتمع، مما يقوم به جملة الجماعة لكل واحد، جميع ما يحتاج إليه في قوامه وفي أن يبلغ الكمال."[34]

تضارعت هذه النقول في أن الإنسان اجتماعي** بطبعه ، وهنا قرّر الفارابي أن الإنسان بفطرته محتاج من الناحيتين المادية والمعنوية إلى أشياء كثيرة ، ليس في وسعه أن يستقل بأدائها ، وينفرد بالقيام بها ، بل هو محتاج إلى عمل كل فرد في مجتمعه ، ولعلّه يشير إلى الناحية المادية بقوله : ـ في قوامه ـ وهي ما يقيم صُلبه، ويشير إلى الناحية المعنوية بقوله :ـ أفضل كمالاته ـ، وهي السعادة .

ويصرّح أن السعادة نفسها لا ينالها الإنسان إلا بالتعاون ، ولعله يقصد التكامل البشري ، ولعل معنى قوله :ـ وكل واحد من كل واحد بهذه الحال ـ، أن الناس قاطبة في حاجتهم إلى التعاون سواء .

ومن العسف في هذا السياق ألا ندرج كلام ابن خلدون في ضرورة الاجتماع الإنساني، يقول ابن خلدون: " الإنسان مدني بالطبع أي لا بد له من الاجتماع، وبيانه أن الله سبحانه خلق الإنسان وركبه على صورة لا يصح حياتها وبقاؤها إلا بالغذاء ، وهداه إلى التماسه بفطرته وبما ركب فيه من القدرة على تحصيله ، إلا أن قدرة الواحد من البشر قاصرة على تحصيل حاجته من ذلك الغذاء، غير موفية له بمادة حياته منه والحصاد والدراس الذي يخرج الحب من غلاف السنبل، ويحتاج كل واحد من هذه إلى آلات متعددة وصنائع كثيرة أكثر من الأولى بكثير، ويستحيل أن تفي بذلك كله أو ببعضه قدرة الواحد ، فلا بد له من اجتماع القدر الكثيرة من أبناء جنسه ليحصل القوت له ولهم ، فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة لأكثر منهم بأضعاف، وكذلك يحتاج كل منهم أيضاً في الدفاع عن نفسه إلى الاستعانة بأبناء جنسه ." [35]

إن طبيعتَي التمدن والاجتماع التي يتميز بها الانسان ، تقتضي استحالة عيشه معزولاً عن الحياة، إذ لا يمكن لأمة أن تغلق على نفسها دون أن تُفيد و تستفيد من غيرها ؛ فالتكامل البشري صفة ملازمة لمفهوم الطبيعة البشرية ؛ فالحرفي بيده ، والمهندس بعقله والمترجم بلسانه، والعالم بفكره ، والباذل بماله كل يكمل صاحبه ، " لذلك نرى أن تحقيق (الذات) السوية وحسن بنائها في هذا السياق وسبيل نجاتها منوط بالتعاون والتكامل والتعايش مع الآخرين وإنقاذهم، فـ« أَفْحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ»[36] فبناء (الآخر) والاهتمام به والتكامل معه أخذاً وعطاء، جزء من بناء (الذات)، والاعتزاز بها، وسبيل قربها من الله، في التصور الإسلامي. لذلك نسارع إلى القول هنا : إن (الذات) المشوهة أو غير السوية، وغير المؤمنة بالله الواحد، وغير المتوازنة وغير المتكاملة مع نفسها غير مؤهلة أو مهيأة للتكامل والتكافل مع الآخرين؛ لأنها تستبد بها الأثرة والأنانية والانغلاق والتعصب، ولا تدرك قيمة (الآخر)، ولا تستشعر الإيثار والغيرية نحوه"[37].

وهكذا هي الطبيعة البشرية تستند في تكاملها على عقلية منفتحة مبدئها في الحياة الأخذ والعطاء المستمر، خلافا للعقلية الأحادية.

إن العقلية الأحادية التي ترى في ذاتيتها المطلق و في غيرها النسبي ، هي تجسيد صريح للإنسانية الأحادية التي ينتفي فيها التعدد و الاختلاف " وقد ولَّدتْ من مفهوم الطبيعة البشرية مفهوم الإنسانية المشتركة التي هي في مقابل الإنسانية الواحدة، والذي يفترض أنَّ الناس كيان واحد وإنسانية واحدة، خاضعة لبرنامج بيولوجي ووراثي واحد "[38]، و معنى ذلك أن الإنسانية الواحدة سبيلها الأوحد قولبة البشر وفق قالب واحد و نمط محدد ، وهذا التصور ناتج من الرؤية الأحادية المادية للوجود البشري وهو التجسيد الفعلي للعولمة .

أما الإنسانية المشتركة فإنها تعني أن الإنسانية تتضارع في إنسانيتها و" تؤمن بأن ثمة إمكانية وطاقة إنسانية كامنة، لا يمكن رصدها وردها إلى قوانين مادية، هذه الطاقة لا يمكنها أن تتحقق في فرد بعينه أو شعب بعينه أو جنس بعينه، وإنما تتحقق بدرجات متفاوتة حسب اختلاف الزمان والمكان والظروف، ومن خلال الجهد الإنساني"[39]. ولعلنا نقول: إن حضارة الإسلام، قيمياً وتاريخياً وواقعياً، في ضوء ذلك وسعت التاريخ العام الإنساني، وتاريخ النبوة من لدن آدم عليه السلام لذلك فهي ذات عمق تاريخي، وغنى إنساني، ابتداء من النشأة الأولى وحتى ينشئ الله النشأة الآخرة، وجاءت بأنموذج يحتذى للتكامل والاكتمال والكمال؛ فقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ[40] كما هو معلوم – لا يعني رسالة محمد فقط، وهذا قائم بطبيعة الحال، وإنما يعني – فيما يعني أن عندها وبها اكتملت وتكاملت مسيرة النبوة وحضارة النبوة ودين البشرية من لدن آدم عليه السلام، فهي تمثل الصورة المبكرة والخاتمة والخالدة للكمال والاكتمال والتكامل.

إن الواقع اليوم يقف شاهدا على أن البشرية تسير قدما نحو المجتمع الواحد تحت مسمى عقلية القطيع أو العولمة، وأن أفكارها، وثقافاتها المتنوعة ، وخصوصياتها في صيرورة نحو الائتلاف، ومن هنا يفرض سؤال جوهري نفسه، هل يمكن أن تشكل العولمة حاضنة للتكامل البشري في ظل انتدابها للفكر الأحادي؟

لقد أجاب الفيلسوف والمفكر المغربي **طه عبد الرحمان** على السؤال الفارط بجواب كاف أسهب القول فيه وفصّل بنهج تنسيقي و وعي ناقد أبعد ـ في تصوري ـ عن الحصريات وعن التحيزات ، قال : " لقد بدأت معالم هذا الفكر الذي تختص به العولمة تبرز منذ مطلع التسعينات من القرن الماضي ؛ وما لبث بعض الكتاب الفرنسيين أن أطلقوا عليه اسما خاصا، وهو: La Pensee unique نضع له من جانبنا المقابل العربي التالي : ـ **الفكر الأحَدِي** ـ .

إن **الفكر الأحَدِي** على وجه الإجمال؛ هو عبارة عن مفاهيم مكررة وأحكام مقلدة واستدلالات جاهزة في مختلف المجالات التي تعنى المواطنين في أحوال معاشهم؛ إذ تتم صياغة هذه المفاهيم والأحكام والاستدلالات بلغة تدعي مراعاة السياق الكوني ... لا يقبل هذا الفكر أن يوجد معه شريك...، يمارس نوعا من الإقصاء المعنوي والإرهاب الفكري... والمتلقي له يجد نفسه محمولا على أن يعتقد ويقلد هذا الفكر الذي يصدر عن جهة لها سلطان سياسي أو اقتصادي أو معلوماتي غير منازع فيه، ثم أنه فكر تمجيدي ؛ لا يفتأ يذكر مزايا العولمة، ويبشر بمستقبل أفضل للمجتمع الإنساني، فيقرر أن في عولمة السياسة مزيدا من ترسيخ حقوق الإنسان، وفي عولمة الاقتصاد مزيدا من التقدم والسعادة، وفي عولمة المعلومات مزيدا من الانفتاح والارتباط"[41].

وفي تجْلِيته لحقائق الفكر الأحَدِي يقول طه عبد الرحمان :" من حقائق هذا الفكر أنه **فكر بلا أمة ****؛ **فكر بلا أخلاق****** ، **فكر بلا إنسان****** ، "[42].

" إن وقاحة الفكر الأحدي وقاحة اجتثاث فهو فكر مبني للمجهول؛ إذ يدعي الانفراد بإفادة جميع الأمم من غير وجود أمة محددة ،لا وطنية، ولا كونية تنسبه إلى نفسها، وقد نتجوز، فنقول إنه فكر «الأمة المجهولة»، إذ «الأمة المجهولة» هنا هي كَلاَ أمة؛ ولا يخفى أن الفكر المجهول أصلب من الفكر المعلوم، إذ لا مسؤولية تحته، والخلو عن المسؤولية باعث على مزيد التصلب ؛ وعلى هذا، فإن الوقاحة التي يتصف بها الفكر الأحدي تتمثل في محو الحامل للمسؤولية، وهو هاهنا الأمة؛ لذا يصح أن نطلق عليها اسم وقاحة الاجتثاث"[43].

إن مكاشفة وشائج هذا الفكر ـ الأحدي ـ التي انبرى لها طه عبد الرحمان وأدرجها في نسق مفاهيمي متكامل ، أجد ـ في تقديري ـ صحتها ضِمنا في الراهن الحضاري الذي أثبت أن الفكر الأحدي الذي تتوسل به العلمانية ، فكر بلا إنسان ؛ فلا من يحرك ساكنا في ظل سيادة دياجي الظلم على ما تشهده الإبادة الجماعية في غزة ، وفكر بلا أخلاق؛ فأين هم دعاة الأخلاق وحقوق الإنسان من هذه المآسي ، وهو فكر بلا أمة ؛ حيث ضاع مفهوم الأمة في زمن صار فيه الدم سائلا رخيصا، وأن وقاحته ، وقاحة اجتثاث فليس هناك ظاهريا من يتحمل مسؤوليته ، فكيف لهذا الفك–الأحدي–أن يكون حاضنة الفِعل التكاملي البشري.

لقد صادر هذا الفكر ناموس الاختلاف الذي سنّه الله بين خلقه وارتضاه شاهدا على عظمته وإبداعه ، و نصّب نفسه وصيّا على معالم العقلانية الإنسانية ، مندّدا بالتحرر الفكري الإنساني و التعدد الثقافي ، لقد اقتفى الفكر الأحدي سُبل الإكراه بشتى مناحيه ؛ الفكري العقدي ، والثقافي ... فأنّى تكون له مقومات التكاملية الإنسانية .

إن هذه المجاهرة كفيلة لبطلان دعوة حُمات العولمة الذين يدّعون أنه لا مناص للبشرية منها ، وأنه ينبغي التكيف معها فـ" القول بأن العولمة مصير ليس له من دافع يضفي عليها إحدى الصبغتين : «التطبيع» أو «التقديس»؛ ففي حالة التطبيع، ينزل حدث العولمة التاريخي منزلة الظاهرة الطبيعية، وتنزل قوانينها الوضعية منزلة السنن الكونية ؛ وفي حالة التقديس، يصبح المنافحون عن المبادئ اللبيرالية الجديدة يعظمونها تعظيم المؤمنين لشعائرهم الدينية، حتى إن أحد النقاد المرموقين للعولمة تكلم بهذا الصدد عن الثالوث الاقتصادي الأقدس : «الخوصصة» و «رفع القوانين» «التحرير»، تلك هي، كما قال، الوصايا التي جاءت في الألواح الجديدة ؛ والصواب أن العولمة، لا هي طبيعة، ولا هي دين ."[44]

وفي تعرُّضه لنقد الفكر الأحدي يقول طه عبد الرحمان " لزمنا التعرّض له بالنقد الأخلاقي، واحتجنا أن نتوسل في هذا النقد بمبدأ إسلامي قادر على دفع هذه الوقاحة وإعادة الاعتبار إلى الإنسان، ...وهو ما أطلقنا عليه اسم الجهد «الاكتمالي»؛ وخاصيته الأساسية أنه فعل إحساني صريح ؛ ولما كان الجهد الاكتمالي بهذا الوصف، فقد جعل المتعارفين : أشخاصا أو أمما يرتقون بتعاملهم مع سواهم إلى رتبة تعاملهم مع أديانهم، إذ يضفون عليه القدسية التي تتمتع بها قيمهم الدينية "[45].

" إن التكامل هو سير نحو الكمال، وهو ما ينسجم مع طبيعة الرؤية التوحيدية التي تؤمن بوجود إله خالق لهذا العالم، فالله هو الوجود الأكمل، وما العالم إلا تجل له، وهو في الآن نفسه آية دالة على الخالق، ولهذا العالم ليس عينه الله، من هنا تنشأ مساحة يصبح فيها العالم كله سائراً نحو الكمال باستمرار"[46]

"إن المساواة والإخاء بين الناس ممكن فقط، إذا كان الإنسان مخلوقاً لله. فالمساواة الإنسانية خصوصية أخلاقية وليست حقيقة طبيعية أو مادية أو عقلية. إن وجودها قائم باعتبارها صفة أخلاقية للإنسان، كسمو إنساني أو كقيمة مساوية للشخصية الإنسانية. وفي مقابل ذلك، إذا نظرنا إلى الناس من الناحية المادية أو الفكرية، أو ككائنات اجتماعية أو أعضاء في مجموعة أو طبقة أو تجمع سياسي أو أممي، فالناس في كل هذا دائماً غير متساوين. ذلك، لأننا إذا تجاهلنا القيمة الروحية – وهي حقيقة ذات صبغة دينية – يتلاشى الأساس الحقيقي الوحيد للمساواة الإنسانية. وتبدو المساواة، حينئذ، مجرد عبارة بدون أساس ولا مضمون، وسرعان ما تتراجع وهي تواجه الوقائع الدالة على اللامساواة بين الناس، أو الرغبة الطبيعية للإنسان أن يسيطر، وأن يطيع ومن ثم لا يكون مساوياً للآخر. فطالما حذفنا المدخل الديني من حسابنا، سرعان ما يمتلىء المكان بأشكال من اللامساواة عرقياً وقومياً واجتماعياً وسياسياً بدون الدين وبدون فكرة الجهاد الروحي المتصل للإنسان ، لا يوجد إيمان حقيقي بالإنسان باعتباره قيمة عليا .بدون ذلك ينتفي الإيمان بإمكانية إنسانية الإنسان، أو بأنه موجود على الحقيقة"[47].

من هنا قولي بأن:"الناس سائرون إلى الكمال، وستتغلب حتما فكرة الإنسانية فينظر الإنسان الى الإنسان من أي جنس كان كأنه أخوه ، لا يظلمه ولا يخونه، يعدل معه كما يعدل مع أفراد أسرته ، وسيضمحل النظر الشخصي أو الجنسي خضوعا لسنة النشوء والارتقاء ، ويحل محله النظر العالمي، فينظر كل فرد الى النوع الإنساني كأنه جسم واحد، يعمل على ترقيته، وتتعاون الأمم وتتبادل المنافع، وترمى كلها الى غرض واحد هو كمال النوع "[48] .

في ضوء ما سبق، وباستعراض الموضوعات الفارطة المطروحة في مجالات العروج والتكامل البشري أقول : إن من ركائز أهداف حوار الحضارات أن يكون المتحاورون على وعيّ تامّ بأن البشرية يكمل بعضها البعض وأن التكامل البشري هو مطلب ارتقاء الإنسان الى أعلى سقف مراتب الإنسانية لتحقيق التكريم الذي من أجله خُلق ، وهذا الأمر ليس طوباويا، بل هو أمر يمكن تحقيقه من خلال إعادة بناء ذهنيات ترى في التنوع البشري أساسا للتكامل، وترى أن الناس على اختلاف أجناسهم ودينهم جسم واحد ، وهذا الجسم لا تقوم له قائمة إلا إذا تحركت قواه مجتمعة ومنسجمة.

إن إعادة بناء هذه الذهنية يقتصر على تجاوز الفكر الأحادي الناتج عن الرؤية الأحادية المادية لفكر العولمة ، هذه الأخيرة التي تَسوقُ البشرية سوقا نحو ائتلاف ممنهج و مزيف تدّعِي فيه مراعاة السياق الكوني، فهذا الفكر لا يفتأ يُسوِّق لمزايا العولمة ، ويُبشِّر الإنسانية بمستقبل مشرق ، رغم أنه فكر بلا أمة ، فكر بلا أخلاق ، فكر بلا إنسان ، ورغم أنه فكر مؤسساتي مجهول الهوية لا ينسب لأمة بعينها.

إن التعرُّض للفكر الأُحادي الإقصائي لا يستقيم إلا بالرؤية العالمية التي جاء بها التشريع الإسلامي، هذه الرؤية التي لا يمكِن أن تُحصِّلها الإنسانية إلا إذا عرجت الى حالة النضج الإيماني والنماء النفسي وفق المنهج الرباني الذي يمكن ايجازُه في الفرار إلى الله واستحضار صفات كماله عز وجل، فعندما تفر الإنسانية الى الله فهي تفر الى الكمال بذاته وصفاته ، وعندما تطلبه في غير الله فإنها تنتكس و تتسافل في دياجي النقصان.

إن التكامل البشري يعِزُّ تحصيله في غياب إعادة بناء الذهنية الأحادية التي تعتبر المعوق الرئيسي في العملية التكاملية ، الأمر الذي يمكن تداركه من خلال التوسل بمجموعة من الآليات؛ لعل ابرزها الحرص على نشر المعرفة و العلوم والتثاقف بين بني البشر، ففي تقديري أن أعظم صور التكامل ، التكامل الثقافي و العلمي.

الخاتمة

وفي ختام هذا البحث، يتبين أن حوار الحضارات، كما تؤصله الرؤية الإسلامية، يتجاوز حدود المقاربات الثقافية التقليدية ليؤسس لرؤية تكاملية ذات عمق معرفي وأخلاقي تسعى إلى إعادة صياغة علاقة الإنسان بالإنسان ضمن أفق إنساني رحب يتجاوز الأنانية العرقية والمصالح المادية الضيقة. إن الدعوة الإسلامية، في إطار عالميتها وشمولها،تؤكد مركزية التكامل البشري كضرورة فطرية وعقلانية لتحقيق السلم والأمن والاستقرار في المجتمع الإنساني، وتؤسس لحوار حضاري يقوم على قيم التعارف والتسامح والعدل واحترام كرامة الإنسان.

كما يثبت هذا البحث أن مواجهة الفكر الأحادي الذي تكرسه العولمة المادية يتطلب إعادة بناء الذهنية الحضارية الإسلامية على أساس الاجتهاد الفكري العميق، والتنظير الفلسفي الرصين، والحضور العلمي الفاعل في الساحة الدولية، من أجل بلورة مشروع حضاري إنساني متكامل يستند إلى المرجعية الوحيانية الإسلامية، ويُسهم في إنقاذ الإنسانية من الاختزال المادي، والاستلاب الثقافي، والفراغ الروحي. وعليه، فإن مسؤولية الأمة الإسلامية اليوم تتعاظم في تقديم هذا النموذج الحضاري المتكامل بوصفه البديل الإنساني القادر على تحقيق التكامل والتعايش في عالم متعدد الثقافات والمشارب.

الهوامش:

[1] – مسارات وخبرات في حوار الحضارات، السيد ياسين، ص:78-79.

[2] - لسان العرب ،ابن منظور، ج13/ 166 .

[3]– التعريفات ،الجرجاني،ص:92 /93.

[4] – لسان العرب ، ابن منظور،ج293/12.

[5] . التعريفات ،الجرجاني،ص26.

[6] - يونس:72.

[7] . البقرة 132

[8] . آل عمران :19.

[9] . التحرير و التنوير، الطاهر بن عاشور ،ج3 /192.

[10] - التحرير والتنوير ج3/ 189.

[11] . الفرقان :1.

[12] . آل عمران: 104.

[13] . فصلت: 33ا.

[14] . الحوار في الكتاب والسنة، بسام داود عجل، ص: 9 .

[15] . الأعراف : 158.

[16] . مسند الإمام أحمد ،ج5/ 266 .

[17] . الدعوة الإسلامية دعوة عالمية ،عطية صقر :ص34

[18]– عالمية الدعوة الإسلامية ، على عبد الحليم محمود ،ج37.36/1

[19]– الدعوة الإسلامية دعوة عالمية ، محمد الراوى ، ص: 518 .

[20]– المرجع نفسه:ص:25.

[21] – الإسراء :17

[22] . الحجرات: 13.

[23] . موسوعة أصول الفكر السياسي والاجتماعي والاقتصادي، خديجة النبراوي ، ص: 2698.

[24]– الفكر السياسي في الإسلام ، شخصيات ومذاهب ، محمد جلال وعلي عبد المعطي ، ص: 104.

[25]– الانسان والحضارة في القرآن الكريم بين العالمية والعولمة ،فرح موسى، ص: 147.

[26] . الانسان والحضارة في القرآن الكريم بين العالمية والعولمة ،فرح موسى، ص: 136 .

[27] . المرجع السابق ،ص: 150.

[28] . فقه المواجهة بين الغرب والإسلام، محمد عمارة،ص: 174، 175.

[30]– العولمة والهوية الثقافية عشر أطروحات في العرب والعولمة ، محمد عابد الجابري ص 301–302.

**. نود أن نلفت النظر إلى أن «المثالية منسوبة إلى المجتمع الطوباوي ليست شيئاً عظيماً كما يتبادر إلى ذهن القارىء، فالمثالية في ثقافتنا الشرقية شيء جميل ومحبوب، ولكنها في العقل الغربي مرتبطة بالخيالي والمستحيل، فبينما نحن نُكْبر المثالية في الأخلاق والسلوك يسخر منها الغربيون، إذا وصفوا شيئاً بأنه مثالي فإنهم يقصدون أنه خيال يستحيل تطبيقه في الواقع (المترجم). من كتاب: الاسلام بين الشرق والغرب. عزت بيجوفيتش، ترجمة محمود يوسف عدس، ص:239.

[31] . التكامل المعرفي عند اهل النظر التوحيدي ، الطاهر محمد الشريف،ص: 16.

[32] . ديوان أبي العلاء المعري اللزوميّات.،ج277/2 .

[33] . الأخلاق ،أحمد أمين،ص73.

[34] آراء أهل المدينة الفاضلة ومضاداتها ،محمد الفارابي،ص:69 .

**.على نقيد ذلك، يقول الفيلسوف المادي هوبز«الإنسان لا اجتماعي بطبيعته . الإنسان في حقيقته فرد لا سبيل إلى إبرائه من فرديته، فهو يأنف الحياة في قطيع وغير قادر على ذلك، لكن يوجد نوع من الناس، أقل إنسانية من غيرهم، يتقبلون الوظيفية والنظام والتماثل.، من كتاب: الاسلام بين الشرق والغرب،عزت بيجوفيتش، ص:245.

[35] . مقدمة ابن خلدون ص :41.

[36] . المعجم الوسيط ،الطبراني، ج6/ 6026 .

[37] . تكامل الحضارات بين الاشكاليات ،عطى محمد حسن زهرة، ص6 .

[38] . رحلتي الفكرية، عبد الوهاب المسيري، ص387 .

[39] . المرجع السابق، ص180.

[40] –المائدة :3.

[41] . الحق الاسلامي في الاختلاف الفكري، طه عبد الرحمن.ص:184 ، ط:1 ، 2005 ، الناشر المركز الثقافي العربي المركز الثقافي المغربي الدار البيضاء

– **فكر بلا أمة ؛وبيان ذلك أن هذا الفكر هو من وضع مؤسسات الإعلام والاقتصاد والمعلوميات الدولية، وليس من وضع أمم معلومة في تعامل بعضها مع بعض ؛ ولا يبعد أن ينتمي أشهر أرباب هذه المؤسسات إلى أمم بعينها، لكنهم لا يقيمون وزنا لأممهم أكثر مما يقيمونه لغيرها، بدليل النأي بمؤسساتهم ومقراتهم عن أوطانهم الأصلية، طلبا للأغراض والمنافع المادية الخاصة، ولا بالأخرى يَهُمُّهم مفهوم الأمة»، بدليل سعيهم وراء تثبيت القوة والنفوذ، لا تثبيت القيم والأخلاق؛ يلزم من هذا أن إنشاء الفكر الأحدي لا يُنسب إلى أمة معلومة، سواء أكانت أمة مخصوصة من أمم العالم أم كانت أمة واحدة تضم هذه الأمم كلها؛ فالحق أنه فكر بلا أمة

**– فكر بلا أخلاق؛ وتوضيح ذلك أن هذا الفكر الأحدي ليس ثمرة التعارف بين أشخاص مختلفين ولا بين أمم مختلفة؛ وقد ثبت أن التعارف هو عبارة عن التعاون على المعروف، مع العلم بأن المعروف يشمل كل قيم الخير والصلاح ؛ والتعاون على مثل هذه القيم هو الذي يورث الأشخاص والأمم مكارم الأخلاق، بحيث على قدر تعاون هؤلاء على المعروف تكون قوة تخلقهم ؛ ولما لم يكن الفكر الأحدي من وضع أشخاص مختلفين يتعاونون على المعروف، ولا بالأحرى من وضع أمم مختلفة تتعاون عليه، فقد افتقد أسباب التعارف وبالتالي أسباب التخليق ؛ وعلى هذا، فهو فكر بلا أخلاق .

** – فكر بلا إنسان ؛لقد اتضح أنه لا مجال في الفكر الأحدي لوجود التعارف، ولا بالأولى لوجود الأخلاق والحال أن الأخلاقية أحق خاصية بتعريف ماهية الإنسان من العقلانية، إذ الفعل العقلي نفسه فعل خلقي، فهو يحتمل أن يكون خيرا أو شرا؛ فإن كان خيرا، ارتقي بصاحبه درجة في الكمال العقلي أو السلوكي، وإن كان شرا، انحط به درجة ؛ ولما كان الفكر الأحدي لا مجال فيه لتحديد الخاصية التي تميز الإنسانية«عن البهيمية»، فهو إذن فكر بلا إنسان"

[42] . الحق الاسلامي في الاختلاف الفكري، طه عبد الرحمن.ص:187 . 189.

[43] . الحق الاسلامي في الاختلاف الفكري، طه عبد الرحمن.ص:190.

[44] الحق الاسلامي في الاختلاف الفكري، طه عبد الرحم ، ص:215 .

[45]. الحق الاسلامي في الاختلاف الفكري، طه عبد الرحمن.ص:215 ، بتصرف بسيط.

[46] . التكامل المعرفي عند اهل النظر التوحيدي ، الطاهر محمد الشريف ،ص: 10.

[47] . الاسلام بين الشرق والغرب، عزت بيجوفيتش ،ص:85.

[48] . الأخلاق ،أحمد أمين،ص: 122.